﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعتِ الآيةُ الكريمةُ من سابقتِها موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ، والمناسبةُ أنّ زَكَرِيَّا قد بشّرتْهُ الملائكةُ بقَبول دُعائِه، فهالَتْهُ قدرةُ اللّه في سرعةِ إجابةِ الدّعاءِ أوّلًا، ثمّ قدرتُه في الخَلْقِ والتّقديرِ، فتساءلَ: كيف يتمُّ هذا مع العوائقِ القائمةِ بشيخوختِه وعجْزِ امرأتِه العاقرِ؟ وهو تساؤلُ المُستشرفِ لإزاحةِ هذه العوائقِ لا اليائسِ منها، ولَيْسَ مِنَ الشَّكِّ في صِدْقِ الوَعْدِ، وهو كَقَوْلِ إبْراهيمَ ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]، فَأُجيبَ بأنَّ المُمْكِناتِ داخِلَةٌ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعالى وإنْ عَزَّ وُقُوعُها في العادَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

❁ شرحُ المُفرداتِ:

1) ﴿غُلَٰمٌ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (غَلِمَ)؛ غَلِمَ يَغْلَمُ؛ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَدَاثَةٍ وَهَيْجِ شَهْوَةٍ، والمِغْليمُ يَستوي فيه الذّكرُ والأنثى، يقال: جاريةٌ مِغليمٌ. واغتَلَمَ الشّرابُ: صلُبَ واشتدَّ. والغُلامُ هو الطارُّ الشّاربِ. والغلامةُ: الجاريةُ، وَالْجَمْعُ غِلْمَةٌ وَغِلْمَانٌ، وَالْغَيْلَمُ: الْجَارِيَةُ الْحَدَثَةُ. وَالْغَيْلَمُ: الشَّابُّ، والولد غلامٌ من ولادته إلى أن يَحْتَلم. وهذا من باب التفاؤلِ، فأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامُه، أي بلوغه حالةَ الرغبة في الأنثى، ويقال: اغْتَلَمَ الْفَحْلُ غُلْمَةً: هَاجَ مِنْ شَهْوَةِ الضِّرَابِ[2].

2) ﴿بَلَغَنِيَ﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (بَلَغَ)، بلغَ الشّيءُ يبلغُ بلوغًا: وصَلَ وانتهَى. وأبلغه هو، وبلَّغه.

وتبلّغَ بالشَّيء: وصلَ به إلى مُرادِه. وبلغَ مبلغَ فلان، ومبلغتُه. والبلاغُ: ما أبلغَك[3]. وفي التّنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: 23]، أي: لا أجدُ مَنجَى إلّا أن أبلّغَ ما أُرسلتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(2) الخليل، العَينْ، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردَات: (غلم)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/141.
(3) ابن سيده، المحكم، والزّمخشري، أساس البلاغة: (بلغ).

به، ويقال: وَلِي فِي هَذَا بَلَاغٌ أَيْ كِفَايَةٌ. وبلغَ الغلامُ: احتلَمَ، كأنه بلغَ وقتَ الكتابِ عليه والتّكليف. وكذلك: بلغتِ الجاريةُ، ويقال: هُوَ أَحْمَقُ بِلْغٌ وَبَلْغٌ، أَيْ إِنَّهُ مَعَ حَمَاقَتِهِ يَبْلُغُ مَا يُرِيدُهُ. وَالْبُلْغَةُ مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ الْمُكْثِرِ إِذَا رَضِيَ وَقَنَعَ، وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وتبالغَ الدّباغُ في الجلد: انتهى فيه. وبلغتِ النّخلةُ، وغيرُها من الشجر: حان إدراكُ ثمرِها[1].

3) ﴿عَاقِرٌ﴾: جذر الكلمة (عَقَرَ)، والعُقْر مصدرُ العاقر، وهي التي لا تَحْمِلُ، يقال: امرأةٌ عَاقِرٌ وبها عُقْرٌ، ونسْوَةٌ عَواقِرُ وعُقَّرٌ. وقد عَقَرَتْ تَعْقِر، (وعُقِرتْ) تُعْقَرُ أحسنُ؛ لأنَّ ذلك شَيْءٌ يَنْزِل بها وليس من فعلِها بنفسِها[2]. و(العاقر) من لا يُولدُ له، رجلاً كان أو امرأةً، مشتقٌّ من العُقر وهو القطعُ؛ لقطعهِ النّسلَ[3]، والعُقار الخمرُ؛ لكونه كالعاقرِ للعقلِ، والمُعاقرةُ إدمانُ شُربِه[4].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

قال زكريا عليه السلام فرحًا متعجِّبًا - لَمَّا بشَّرته الملائكةُ بإجابةِ الدُّعاءِ وبالولدِ -: ربِّ أنَّى يكون لي غلامٌ مع أنَّ الشَّيْخوخةَ قد بلغت مني مَبْلَغَها؛ إذ كان في التِّسعين أو أكثرَ، وامرأتي عقيمٌ لا تَلِدُ، وكلٌّ واحدٍ من الأمرين مانعٌ من وجود الوَلَد، فكيف وقد اجتمعا؟ قال: كذلكَ يفعل اللّه ما يشاء من الأفعال العجيبةِ المخالفةِ للعادة، فكما أنَّه تعالى قَدَّر وجودَ الأولاد بالأسباب التي منها التَّناسلُ، فإذا أرادَ أنْ يوجدهم من غير ما سَببٍ فَعَلَ، فهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء بحِكْمته وعِلْمه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فنّ السُّؤال والجواب[6]:

تكرّرَ فنُّ السُّؤالِ والجوابِ في القِطعةِ القرآنيّةِ في قولِه في السُّؤال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وقوله في الجوابِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾. ومن فوائدِ هذا الفنِّ اختصارُ المشهدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير: (بلغ).
(2) الخليل، العَينْ، والراغب، المُفردَات: (عقر).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(4) الراغب، المُفردَات: (عقر).
(5) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/211، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.

ومُحتواه في جُملتَيْن مُتتاليتَيْن مُباشرتين، ففي هذا الفنِّ منَ الإيجاز والبيانِ ما فيه؛ إذ يُقدّمُ مشهدًا حِواريًّا حيًّا، وينقلُ المُتلقّي إلى لحظاتٍ زمنيّةٍ غابرةٍ لكنّها في القرآن تُعبّرُ عن لحظاتٍ مفصليّةٍ تَروي قصصَ الإيمان، وتُقدّمُ قيمَ الحياة والدّين.

أسلوبُ السُّؤالِ والجوابِ منهجٌ علميٌّ قيِّمٌ في توثيقِ الوقائعِ والعلومِ والأحداثِ

مناسبةُ ذكْرِ الغُلام بعد الحَصُور:

الغلامُ يُذكرُ في مَعرضِ الكِنايةِ عنِ القُوّةِ، فقال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ في تعبيرِه به في سياقِ الحَصورِ دليلٌ على أنّه في غايةِ ما يكونُ من صحّةِ الجسمِ وقُوّتِه اللّازمِ من شدّةِ الدّاعيةِ إلى النِّكاحِ، وهو مع ذلك يَمنعُ نفسَه منه مَنعًا زائدًا على الحدِّ، فهو مُقبلٌ على العبادةِ بكلّيته ومُعرضٌ عن كلِّ ما يَشْغَلُ عنها جملةً لا سيّمَا النّكاحُ، بحيث يُظنُّ أنه لا إرْبَ له فيه، وهذا المُوافقُ للتَّعبيرِ الأوّلِ للحَصورِ في القاموسِ، وهو الذي يَنبغي ألّا يُعرَّجَ على غيرِه؛ لأنّه بناءُ مبالغةٍ من مُتعدٍّ، ولأنّه أمدحُ له عليه السلام ومهما دارَ الشَّيءُ على صفةِ الكمالِ في الأنبياءِ - عليهم السلام - وجبَ أن لا يُعدَلَ عنه، لذلك فهو إخبارٌ عن آخرِ أمْرِه الذي أدّتْ إليه عزيمتُه، وإن كان الجمعُ لكمالِ الوجودِ الإنسانيّ بالنّكاحِ أكملَ كما وقع لنبيّنا ﷺ[1].

وجهُ ذكر الغلام الكنايةُ عن القوّة وتمام الصّحة الدّاعية إلى النكاح، وهو مع ذلك يَمنعُ نفسَه منه مَنعًا مبالغًا فيه

وذكرُ الغُلام في الآية جاء على لسان زَكَرِيَّا عليه السلام إذ يَكتنزُ قولُه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ تضمينَ معنًى آخرَ؛ فالغلامُ من غَلِمَ يَغْلَمُ؛ أي غُلِبَ شهوةً، وهذا المعنى مهمٌّ، وهو مدارُ سياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ فقد اختارَ زَكَرِيَّا مرحلةً عُمريّةً مقصودةً فقال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ ولم يقل: (وَلَدٌ)، لبيانِ قصدِ تغلّبِ شهوتِه، إذ ذُكرَ من صفاتِه أنّه حَصور، أي: غالبٌ على شهوتِه على عكسِ ما يكونُ عليه الغلمانُ عادةً؛ وفي ذلك كرامةٌ ليحيى.

يكتنزُ ذِكرُ الغلام تضمينَ معنى تغلّب الشّهوة، وهو أنسبُ لمعنى المبالغة في الحَصور

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/77.

بيانُ تناسُبِ المعنى بين: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ و﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾:

قُـدراتُ البشرِ مـحـدودةٌ تـحـكـمُـهـا الأحـوالُ، وظواهرُ الحياةِ، وقـدرةُ الـلـه مُطلقةٌ تفوقُ كلَّ توقُّعٍ

الآية تصفُ الحالَ الميئوسَ منه؛ وهو قولُه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ إلى حدٍّ لا يُنجب فيه عادةً، ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾؛ منَ العُقرِ وهو البلوغُ إلى حدِّ انقطاعِ النَّسلِ هرمًا؛ كذا قال، وآيةُ سورةِ مريمَ تدلُّ على أنَّ المعنى أنها لم تزلْ عَقيمًا، وعليه يدلُّ كلامُ أهلِ اللُّغة، العُقرةُ وتضمّ: العُقم، والعُقْرُ بضم العين وسكونِ القاف مصدرُ العاقر منَ النّساءِ وهي التي لا تحملُ من غيرِ داءٍ ولا كِبَرٍ[1]. فيكونُ كنايةً عن عدمِ الإنجاب أيضًا. وبين التّعبيرَيْن تناسُبٌ في المعنى والكنايةِ.

مـن وجـوهِ التّقابل تناسبُ صـيـغـتـي الـجـمـلـتـين بـين الـفـعـليّة والاسميّة

في التعبير بـ﴿بَلَغَنِيَ﴾ وهو جملة فعليّة دلالة على أنّ الكِبَر طرأ على زكريا بعد قوّة وفتوّة، بما يوحيه لفظ الفعل (بلغ)، وصيغته. وفي التّعبير عن امرأته بأنّها عاقرٌ بالجملة الاسمية ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ دلالة ثبوت الصفة فيها، وأنّها عاقرٌ منذ بلوغِها مبلغَ النّساءِ، ولم يطرأْ عليها عند الكِبَر[2].

وجهُ الجمعِ بين النّقيضَين في التّقابُل:

اجـتـمـاع النقيضين بيانٌ لمدى التّعجيبِ الـذي أصـاب زَكَرِيَّا عليه السلام

التّقابُلُ بين قوله: ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ وهي كنايةٌ عنِ الإنجاب، وقوله: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ وهي كنايةٌ عن عدمِ الإنجاب؛ يُظهرُ مدَى التّعجيبِ الذي أصاب زَكَرِيَّا عليه السلام لكنّه تعجيبٌ تحت مظلّةِ اليقينِ التّامِّ، فجعلَه مُتضمّنًا لدعاءٍ خَفيٍّ؛ إذْ يكتنزُ قولُه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ تضمينَ دعاءٍ آخرَ؛ فقد سأل الله في هذا الاستفهام أن يمدَّ الله في عمرِه حتى يَرى ابنَه غُلامًا قويًّا، فلم يقلْ: أنّى يكونُ لي ولدٌ أو مولودٌ وذلك طلبًا في طُول العُمر، وأتبعَها قولَه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ خشيةَ أنْ يموتَ قبْل أن يَرى ابنَه يحيى متّصفًا بتلك الصِّفاتِ العظيمةِ العاليةِ التي بُشّرَ بها، كونُه؛ مُصدّقًا وسَيّدًا وَحصورًا ونَبيًّا منَ الصّالحين.

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/163.

براعة دَفْع ما يُوقِعُ في الوَهْمِ:

اليقينُ بقُدرةِ اللهِ تعالى عبادةٌ خاصّةٌ تميّزَ بها الأنبياءُ والعلماءُ والصّالحونَ

في قَوْله تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]. دليلٌ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا عليه السلام لَيْسَ عِنْدَهُ شَكٌّ في قُدْرَةِ اللَّه عَلَى أَنْ يرْزُقَهُ الوَلَدَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ، وَقَدْ جَاءَ هنا بمَا يُوهِمُ خِلَافَ ذَلِكَ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. والجَوَابُ عَنْ هَذَا بأمرين: الأول: أَنَّ اسْتِفْهَامَهُ اسْتِفْهَامُ اسْتِعْلَام وَاسْتِخْبَار؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي هَلِ اللهُ يَأْتِيهِ بالوَلَدِ مِنْ زَوْجِهِ العَجُوزِ؟ أَمْ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ شَابَّةً؟ أَوْ يَرُدُّهُمَا شَابَّيْنِ؟ الثاني: أَنَّهُ اسْتِفْهَامُ اسْتِعْظَامٍ وَتَعَجُّبٍ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّه تَعَالَى[1].

علّة التّقديمِ والتّأخيرُ فيما بين المتشابه اللفظي:

وجه التقديم والتأخير مناسبةُ سباق الآية وسياقها

قَوْلُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ قدَّمَ في هذه السُّورَة ذكرَ حاله وما به من الكِبَر، وَأخّر ذكْرَ المَرْأَة، فقدّمَ نقصَ نفسه، لكنّه قَالَ في سُورَة مَرْيَمَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾، فَقدَّم ذكرَ المَرْأَة وذكَرَ أنّها عاقرٌ؛ لأنّ في سورة مَرْيَمَ قد تقدَّم ما كنّى عن الكِبَر في آيةٍ سابقةٍ فقال: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، وَتَأَخّر ذكرُ المَرْأَة في قَوْله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 5]، ثمَّ أعَاد ذكرَهَا فَأَخَّر ذكرَ الكِبَر ليُوَافق ﴿عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8] مَا بعده منَ الآيَات وَهِي ﴿سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: 10] و﴿وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: 11] و﴿صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: 12][2].

بلاغة الاستفهامُ في الآية:

بيانُ الاستفهامِ التعجّبَ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، واسْتِعْظَامه

ذهبَ الطّبريّ وغيرُه إلى أن زَكَرِيَّا لمّا رأى حالَ نفسه وحالَ امرأته وأنها ليستْ بحالِ نَسْلٍ سأل بقولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾

(1) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 39.
(2) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 89، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.

عنِ الوجهِ الذي به يكونُ الغلامُ، و﴿أَنَّىٰ﴾ معناها كيفَ ومن أينَ[1]. والمرادُ بالاستفهام التّعجّبُ، قصَدَ منه تعرُّفَ إمكانِ الولدِ؛ لأنّه لمّا سأل الولدَ فقد تهيّأ لحصولِ ذلك، فلا يكونُ قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إلّا تطلُّبًا لمعرفةِ كيفيةِ ذلك على وجهٍ يُحقّقُ له البِشارةَ، وليس منَ الشّكِّ في صِدقِ الوَعْدِ، فأُجيبَ بأنَّ المُمكناتِ داخلةٌ تحت قُدرةِ اللّه تعالى وإنْ عزَّ وُقوعُها في العادةِ[2]. فقال ذلك تعجُّبًا من قُدرةِ اللّه تعالى لا استبعادًا[3].

بيان الغرض من التّعجيب في الاستفهام:

و﴿أَنَّىٰ﴾ فيه؛ بمعنى كيفَ، أو بمعنى المَكَان، لتعذُّرِ عملِ المكانَيْنِ اللذَينِ هما سببُ التّناسُلِ؛ وهما الكِبَرُ والعُقرةُ، وهذا التّعجّبُ في مضمونِه الشُّكرُ على هذه المِنّةِ فهو كنايةٌ عنِ الشُّكر. وفيه تَعريضٌ بأنْ يكونَ الوَلدُ من زوجِه العاقِر، دون أن يؤمَرَ بتزوّجِ امرأةٍ أُخرى، وهذه كرامةٌ لامرأة زَكَرِيَّا[4]. فلا يتغيّر شيءٌ من حالِ زكريا، ويُوهبُ الولدُ الّذي طلبَ، فكان التّعجيبُ كنايةً عن شُكرِه البالغِ، الذي لم يتمكّنْ منَ التّعبيرِ عنه إلّا بأسلوبِ الاستفهامِ المُفعَمِ بالحيويّةِ، والفرحِ بما بُشِّر به.

فائدة التّعجّب الكنايةُ عنِ الشُّكر، والتّعريضُ بأنْ يكونَ الوَلدُ من زوجِهِ العاقِر

براعة الإطناب في السُّؤالِ:

السّؤالُ في قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ليس على طريقِ استبعادِ التحقّق، بل استعظامًا للقُدرة واعتذارًا منه - ﷻ؛ لأنّه يعلمُ أنّ ربَّه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولكنّ الذي ساقهُ إلى ذلك عِظمُ سرورِه وشدّةُ فرحه بإجابةِ دعوتِه، والْتِذاذُهُ بسماعِ كلامِ ربّه[5]، فيكونُ

التّلذُّذُ بسماعِ كلامِ اللّه عندَ الأنبياءِ يُقابلهُ عند عُمومِ المؤمنين الموحّدين التّلذُّذُ باستشعار قَبُولِ الدّعاء وإجابتِه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/431.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(5) العاني، بيان المعاني: 5/339.

في الكلامِ إطنابٌ لسؤاله مع علْمِه بالجوابِ. وهذا معنى الالْتذاذِ بسماعِ كلامِ ربِّه.

براعةُ تكرارِ الاستفهام بمعنًى واحدٍ:

تكرّرَ استفهامُ زَكَريَّا في هذه القطعةِ القرآنيةِ؛ ففي آيةٍ سابقةٍ قال لمريم في سؤالِه عنِ الرّزق: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: 37]، وهنا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟، والاستفهامان معناهُما واحدٌ؛ إذ تضمّنا التّعجيبَ عن خَرْقِ السُّنّنِ الكونيّةِ في الإيجادِ والخَلْقِ والتّكوينِ، فمعنى الاستفهامِ الأوّلِ هو السّؤالُ عن مصدرِ الرّزقِ الذي يجهلُه، والقُدرةِ التي أوجدتْه. ومعنى الاستفهامِ الثّاني كان سؤالًا عن كَينونةِ الغلامِ له مع انتفاءِ أسبابِ الإنجابِ مع اليقينِ التّامِّ بصدقِ البشارةِ بالغلامِ. فهو استفهامٌ حقيقيٌّ مشوبٌ بالتّعجُّبِ والدّهشةِ من طلاقةِ قُدرةِ اللّه تعالى في الخَلْقِ والتّقديرِ.

تضمّن الاستفهامان التّعجيبَ عن خَرْقِ السُّنّنِ الكونيّةِ في الإيجادِ والخَلْقِ والتّكوينِ

بَلاغةُ القَلْبِ في جملة: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾:

قولُه: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ جاء على طريق القَلْبِ، وأصلُه: وقد بَلَغْتُ الكِبَرَ[1]، وفائدتُه إظهارُ تمكُّنِ الكِبَرِ منه، كأنّه يطلبُه حتى بلغَه كقولِه تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: 78][2]. كما تقول: (وَقَدْ بَلَغَنِي الجَهْدُ)؛ أي: أنَا في الجَهْدِ والكِبَرِ[3]. والعَرَبُ تصنعُ مثلَ هذا، فقولُه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ أي بلغتُهُ[4]، وعكسَ في سورة مريمَ فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، فما بلغَك فقد بلغتَهُ[5]، وهذا الأسلوبُ في التّشخيصِ يتضمّنُ المبالغةَ في الوصفِ؛ إذ يُمثّل تمكّنَ الكِبَرِ من زكريّا عليه السلام بأعلى درجاتِ الهيمنةِ، فلا يجدُ مَفَكًّا منه، ولا جَدوَى من إخفائِه أو معالجتِه.

فائدةُ القلبِ إظهارُ تمكُّنِ الكِبَرِ منه، كأنّه يطلبُه حتى بلغَه

(1) الزّركشّي، البرهان: 2/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 1/169.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 123، وأبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 92.
(5) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

بديعُ الاستعارةِ والتَّشخيصِ في قولِه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾:

بيانُ الاستعارة تشخيص الكِبرَ كـأنّـه رجـلٌ يـقـصـدُه حتّى بلغَه

وقولُه: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾؛ استعارةٌ شخّص فيها الكِبرَ كأنّه رجلٌ يقصدُه، ويَسعى إلى اللِّحاقِ به، حتّى بلغَه، وأدركَهُ وهو على حالتِه تلك. وكأنّ الزّمانَ طريقٌ، والحوادثُ تتساوقُ فيه، فإذا التقَى حادثان فكأنّ كُلَّ واحدٍ منهما قد بلغَ صاحبَه، وحقيقةُ البُلوغِ في الأَجرَام أن ينتقلَ البالغُ إلى المبلوغِ إليه، وحَسُنَ في الآية: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ من حيث هي عبارةٌ واهِنٍ مُنفعلٍ، وبلغتُ: عبارةُ فاعلٍ مُستعلٍ[1]. قال أهلُ اللّغة: كلُّ شيءٍ صادفتَهُ وبلغتَهُ فقد صادفَكَ وبلغَك، وذلك إذا أمكنَ تصوّرُ الطّلبِ منَ الجانبين، فيجوز: بلغتُ الكبرَ، وبلغني الكبرُ؛ لأنّ الكِبَرَ كالشّيءِ الطّالبِ للإنسانِ فهو يأتيه بحدوثِه فيه، والإنسانُ أيضًا يأتيه بمرورِ العُمر عليه[2].

دلالة صيغة المُفاعلة في لفظ ﴿بَلَغَنِيَ﴾:

تُفيدُ المفاعلة في الفعل (بلغ) معنى المُخالطةَ بين الطّرفين، والتَّشخيص لل (كِبَر)

من معاني صيغة (المفاعلة) في لفظ (بلغ) من قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ التبادُلُ والمُشاركةُ منَ الطّرفين، وفي التّعبير بـ ﴿بَلَغَنِيَ﴾ وهو جملةٌ فعليةٌ للدّلالةِ على أنّ الكِبَرَ طرأ عليه بعد قُوّةٍ وفتُوّةٍ. في حين يحاولُ هو فَوْتَه[3].

وقال تعالى هنا: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ فذكرَ أوّلًا كِبرَ سنّه، ثمّ حالةَ امرأتِه العاقرِ، وفي سورة مريمَ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]، فعكَسَ إيرادَ الحالَيْن في الجُملة، ولا تعارُضَ، إذْ إنّ الواو لا تقتضي التّرتيبَ[4]. والمُغايرةُ في التّرتيبِ في المَوضعَيْن تدلُّ على التّعجّب من قُدرةِ الله، وكأنَّ النَّظمَ الكريمَ يَحكي اندهاشَه عليه السلام وكأنّه يقولُ:

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/155.
(3) أديب، عصمة القرآن، ص: 23.
(4) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

ما أقدَرَك ياربّ؛ فاتَ السّببُ مني ومنَ امرأتي، وفاتَ منَ امرأتي ومني، ففُقدانُ الأسبابِ أحاطَ بنا منَ الجِهَتين.

أثرُ التَّعريفُ والتَّنكيرُ في توجيه المعنى:

أفاد التَّعبيرُ نفسُه في هذه الاية أنَّ الكِبَرَ هو السببُ الأظهرُ عند زَكَرِيَّا عليه السلام في عدم الإنجاب. فقد أسندَ إليه البلوغَ فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، والمُلاحظُ أنّ ﴿ٱلْكِبَرُ﴾ جاءَ مُعرّفًا بـ (أل) و﴿عَاقِرٌ﴾ جاء نكرةً، فسلّطَ التّعجيبَ في سؤالِه على حالِ الكِبَرِ الذي قد بلغَه؛ وكمّلَ ذلك التّعجيبَ بتعجيبٍ آخرَ، فقال: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ إذ لو كان الأمرُ متعلّقًا بعقْر امرأتِه فلا عجبَ في الأمر، إذ يمكنُه حينَها، أن يتزوّجَ غيرَها، فلا يكونُ في ذلك خرقٌ لنواميسِ الكونِ في الإنجابِ، أمَا إنّه يعلمُ ما قد بلغَه منَ الكِبَرِ ممّا تُحيلُ العادةُ أن يُنجبَ، وهو على حالِه الّتي بلغَها، فجاء ﴿ٱلْكِبَرُ﴾ معرفةً لبيان هذا الجانبِ منَ التَّعجيب، ونكّرَ ﴿عَاقِرٌ﴾ للتّقليل من شأنِه، وباعتباره أمرًا إضافيًّا إلى تعجيبِه من تلك البِشارةِ.

أفاد تعريفُ (الكِبر) وتنكيرُ (عاقِر) تسليطَ التّعجيب في سؤالِه على حالِ الكِبَرِ الذي قد بلغَه

إيثارُ لفظ (المَرأة) دون (الزّوجة):

ورد في دُعاءِ زَكَرِيَّا ربَّه قولُه: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. وقولُه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 5]. ولمّا استجابَ له ربُّه وحقّقتِ الزّوجيةُ حكمتَها، كانتِ الآيةُ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90].

في مواضع فقدان مقوّمات الزّوجيّة يذكر المرأة، وفي مواضع استقامتها يذكر الزوج

وبملْحَظٍ دقيقٍ من تقريرِ التّكامُلِ بين الزَّوجين، لم يستعملِ القرآنُ الكريمُ كلمةَ (زوجة) - وإن صحّتْ عربيةً - في الإفراد ولا في التّثنيةِ والجمعِ، بل هي زوجُه وهو زوجُها، وهما زوجان، وهنّ أزواجُهم وهم أزواجُهنّ،.. يطّرد ذلك حيثما وردتِ الكلمةُ في البيانِ القرآنيِّ[1]. وسببُ ذلك أنّ القرآنَ يذكرُ المرأةَ في المواضعِ

(1) بنت الشاطئ، الإعجاز البياني، ص: 231.

التي تفقدُ فيها الحياةُ الزّوجيةُ بعضَ مقوِّماتها. سواء أكان ذلك من جانبِ الرّجل أم من جانبِ المرأة، ويُؤْثِرُ كلمةَ " الزّوج " متى استقامتْ تلك الحياةُ.

اختصاصُ عاقرٍ بعدمِ التّأنيثِ في صِيغةِ (فاعل):

ترك تأنيثِ لفظ (عـاقـر) لأنّـه وصـفٌ خـاصٌّ بالأنثى لم يُؤنّث

العاقرُ المرأةُ التي لا تلدُ؛ لأنها عقرتْ رحمَها؛ أي: قطَعَتْهُ. ولأنّه وصفٌ خاصٌّ بالأنثى لم يُؤنّث؛ كقولِهم: حائضٌ ونافسٌ ومُرضعٌ، ولكنّه يُؤنَّثُ في غيرِ صيغةِ الفاعلِ، فمنه قولُهم: عَقرى دُعاءٌ على المرأة، وفي الحديثِ: «عَقْرَى حَلْقَى وكذلك نُفساء»[1]، وقال ابنُ عطيّة: و﴿عَاقِرٌ﴾ بناءُ فاعلٍ وهو على النَّسبِ، وليس بجارٍ على الفعلِ[2].

وجه افتتاح الفاصلة باسم الإشارة:

الاشـــــارةُ بـ (ذلـــك) إلى القدرة المُعجزة المُسْتَعْظَمة، أو إلى حالِ زَكَرِيَّا وحالِ امرأتِه

معنى الإشارة بـ (ذلك) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾، أي: كهذه القدرةِ المُستغربةِ هي قدرةُ الله، وفي التّعبير باسمِ الاشارةِ الإشعارُ بفخامةِ المُشارِ إليه من كونِه إحدَى المُعجزاتِ. ففي الكلامِ حذفُ مضافٍ، والكلامُ تامٌّ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وقولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ شرحُ الإبهامِ الذي في (ذلك)، ويحتمل أن تكونَ الإشارةُ بـ (ذلك) إلى حالِ زَكَرِيَّا وحالِ امرأته، فقال: كما أنتما يكونُ لكما الغلامُ، والكلامُ تامٌّ على هذا التأويلِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

الافتتاح باسم الإشـــارة دليـلٌ على بُعد تحقّق الفعل على غير الله تعالى

استأنف القول في جملة: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الدّال على البعد، أي: مثلُ هذا الفعلِ الجليلِ البعيدِ الرُّتبةِ[3]. الذي تعجّبت منه ليس على الله ببعيد؛ لأنّه يفعل ما يشاء، فهو القادر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242، والحديث أخرجه البخاري، الحديث رقم: (1561).
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(3) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

التّشبيهُ والتّوكيدُ والتّحقيقُ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

السّرُّ في المَجيءِ بكاف التّشبيه هنا هو بيانُ تمامِ المُطابقةِ بين الحقيقةِ الخارجيةِ، والحقيقةِ الكلاميةِ

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، صورةٌ تشبيهيّةٌ؛ المُشبَّهُ به اسمُ إشارةٍ (ذلك)، والمُشبّهُ هو فعلُ اللّه؛ كلُّ ما يشاءُ منَ الأفعال، والتّقديرُ: مثلُ ذلك الفعلِ، والتّقديرُ في خَلْقِ الولد من عجوزَيْن تَنفي العادةُ إمكانَ إنجابِهما؛ مثل ذلك الفعلِ يفعلُ اللّه ما يشاء، وما يريدُ في طلاقةِ القُدْرة عليه يفعل اللّه كلَّ ما يُريدُ، وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: يكونُ أمرُ التّشبيه فيها غيرَ ظاهرٍ، فيُحملُ معناها على التّوكيد وإن صحَّ معها تقديرُ التّشبيه. ويقدِّرُ بعضُ العلماء في مثلِ هذا التّركيبِ أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه: الأمرُ كذلك، والمرادُ هو ما أُخبرتَ به، لا ريْبَ فيه، ومن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذه التي للتّحقيقِ والتّوكيد. ولعلّ السّرَّ في المَجيءِ بكاف التّشبيه هنا هو بيانُ تمامِ المُطابقةِ بين الحقيقةِ الخارجيةِ، والحقيقةِ الكلاميةِ، أي: إنَّ ما يكونُ في الواقع يُطابقُ ما دلَّ عليه الكلامُ، وتفيدُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التّحقيقَ إذا كَوّنتْ هي ومبتدؤُها جملةً مستقلّةً، كما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، و﴿كَذَٰلِكَ﴾: هنا تُؤدِّي معنى قد، وربما جاءتْ إفادتُها للتّحقيق، من كثرةِ مجيئِها لبيانِ التّطابُقِ؛ واستعمالُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتّحقيقِ والتّوكيدِ لا يقلُّ عنِ استخدامِها في التّشبيه[1].

نكتة التعليل بـ (الفعل) في الفاصلة:

وجه التعليل بـ (الفعل) استنباؤُه عنِ القوّةِ والكمالِ لا عنِ الخَلْق

ولمّا كان استنباؤُه عنِ القوّةِ والكمالِ لا عنِ الخَلْق عبَّر - سبحانه - في تعليلِ ذلك بـ (الفعل) فقال: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنّه المحيطُ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعلمًا، فكأنه قيل: قد قرّتْ عينُه[2]، بخلافِ ما يأتي في قصّةِ مريمَ عليها السلام.

(1) البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 165.
(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

سرُّ التعبير بالجُملةِ الاسميّةِ في الفاصلة:

اسميّةُ جملة الفاصلة دليلُ الثُّبوتِ، فالأمرُ راسخٌ في قدَرِ الله سبحانه، ولا تغييرَ لكلماتِ الله في قضائِه وقَدَرِه سبحانه

أورد الفاصلة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ جملةً اسميةً، ولم يقل: (يفعل الله ما يشاء)، لكونها جملةً مبيّنةً مقرّرةً في النّفسِ وقوعَ هذا الأمرِ المُستغربِ[1]. وهي دالّةٌ على الثُّبوتِ، فالأمرُ راسخٌ في قدَرِ الله سبحانه، ولا تغييرَ لكلماتِ الله في قضائِه وقَدَرِه سبحانه، ولو كانتِ الجملةُ فعليةً لدلّتْ على التّجدُّدِ والاستمرارِ، فتكونُ تلك الحالةُ سنّةً كونيّةً ممكنةً للنّاس جميعًا، فلا يَمتنعُ الإنجابُ بسببِ بلوغِ الكِبَرِ، وحالةِ المرأةِ العاقرِ.

نكتة تقديم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

دَلالةُ التقديمِ القَصْرُ؛ فالله مخصوصٌ بفعل مايشاءُ وحدَه

وقُدِّم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ على خبره الذي وقع جملةً فعليةً، ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي ذلك دَلالةٌ على القَصْرِ؛ فالله مخصوصٌ بفعل مايشاءُ وحدَه.

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 1/427.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»